المحاضرة السادسة

الحضارة الرومانية: تاريخ الرومان – الأدب والفنون والعمران

الحضارة الرومانية واحدة من الحضارات الرئيسية التي ظهرت في العالم تاركة موروثا حضاريا عظيما ساهم في تقدم الحضارة الإنسانية "وذلك عن طريق الاستفادة من المكاسب العديدة المعنوية والمادية التي كانت الحضارة الرومانية قد أنجزتها"[1]

الرومان هم شعب هاجر من شرق أوروبا إلى الجزر الإيطالية ابتداء من 1200 قبل الميلاد، وقاموا بتأسيس مدينة روما القديمة، ثم عمل هذا الشعب على تطوير مؤسساته السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية وبدأ بالتوسع التدريجي وأسس دولة سيطرت في بادئ الأمر على شبه الجزيرة الإيطالية ثم اتسعت هذه الدولة وسيطرت على معظم العالم القديم وأصبحت حدودها شاسعة امتدت من الجزر البريطانية وشواطئ أوروبا الأطلسية غرباً إلى بلاد ما بين النهرين وساحل بحر قزوين شرقاً ومن وسط أوروبا حتى شمال جبال الألب والى الصحراء الإفريقية الكبرى والبحر الأحمر جنوباً، وبذلك كانت مثالاً على مفهوم الدولة الجامعة ذات الطابع الاستعماري.

أما عن أصول هذا الشعب " فقد سكنت إيطاليا عدة أجناس من الأمم لم يتحدوا في عاداتهم ولغاتهم، فقد كان السهل العظيم بين جبال الألب والأبنين يعتبر جزءا من إيطاليا، وهناك نزل شعوب من الغاليين أتوها من الشمال، فكان الأتروسكيون ينزلون في البلاد الواقعة بين جبال الأبنين والبحر (هو إقليم توسكانيا) إلى نهر التيبر، وفي جنوبه ينزل اللاتين، ولقد سكنت قبائل كثيرة في جبال الأبنين الوعرة وراء السهول الرومانية في الشرق والجنوب، ولم تَدع كل هذه الشعوب باسم واحد ولم تؤلف أمة واحدة، بل كانت تنقسم إلى: أمبيريين و صابتيين و فولسكيين و إيكيين و هريكيين ومارسن و سامنتيين ولكنهم يكادون كلهم يتكلمون بلغة واحدة ويعبدون أربابا واحدة ولهم عادات واحدة، يتكلمون كالفرس والهنود واليونان بلغة آرية..."[2]

نشأت روما (المدينة الدولة) في القرنين: الحادي عشر والعاشر الميلادي، عندما استوطنت مجموعات من القبائل الآرية على الضفة الجنوبية لنهر التيبر في المنطقة المسماة (لاتيوم– Latium)ن لتنتقل بعد ذلك مجموعة أخرى من هذه القبائل إلى الضفة الشمالية للنهر لتستقر في

[1]– محمد خريسات: تاريخ الحضارة الإنسانية، ص116.

[2]– شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، تر: محمد كرد علي، ص 133– 134.

المكان الذي أُسست فيه مدينة روما بعد ذلك بقليل[1]. وعقب ذلك بقرنين استقرت مجموعة أخرى هم (السابينيون Sabini) لتنظم إلى المجموعة الأولى.

كان لروما القديمة تأثير كبير على تطور الحضارة الغربية؛ لأن هذه الإمبراطورية كانت واسعة للغاية،ودامت زمنا طويلا، فقد أصبحت لغة الرومان القدماء . وهي اللغة اللاتينية . أساسًا للغة الفرنسية والإيطالية والأسبانية، والأنجليزية. كما قدم القانون الروماني الأساس للنظم التشريعية لمعظم بلدان أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية .وأسهمت مبادئ العدالة الرومانية والنظام السياسي الروماني في إقامة حكومات في عدد كبير من البلاد في الغرب. كما ظلت بعض الطرق والجسور والقنوات الرومانية تستخدم نماذج للمهندسين في العصور اللاحقة.

نظام الحكم: المتتبع للنظام السياسي في روما، يجد أن روما لم تصل إلى الملكية إلا في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، حَكَمَ روما القديمة، في البداية، سلسلة من الملوك. وكان مجلس الشيوخ، المؤلف من زعماء عائلات روما البارزة، يقوم بتوجيه الملك. ويلتقي المواطنون في مجالس للتصويت على قرارات الملك ومجلس الشيوخ.

الجمهورية الرومانية: ثار الشعب الروماني وتخلص من الملكية معلنا قيام الجمهورية مع مطلع القرن الخامس قبل الميلاد وبالتحديد سنة 509 ق.م[2]واحتفظ نظام الحكم الجديد بملامح كثيرة من النظام السابق، بما في ذلك مجلس الشيوخ والمجالس الشعبية. وكان يترأس الحكومة موظفان منتخبان يُسمى الواحد منهما قنصلاً. ومع أن القنصلين تقاسما السلطة ولكن كان بإمكان أي منهما نقض إجراءات القنصل الآخر. وكان القنصل يخدم لمدة سنة واحدة فقط.

كان مجلس الشيوخ أقوى الهيئات الحكومية سلطة في الجمهورية الرومانية .كان يوجه السياسة الخارجية، ويصدر المراسيم، ويعالج الأمور المالية الحكومية وكانت عضوية مجلس الشيوخ مدى الحياة. وكان أعضاء هذا المجلس، في البداية، من الأشراف، وقد هيمن هؤلاء الأشراف ليس على مجلس الشيوخ فحسب بل أيضًا على المجلس الذي كان ينتخب القناصل والموظفين المهمين الآخرين.

---

[1]– المرجع نفسه، ص117.

[2]– محمد خريسات: تاريخ الحضارة الإنسانية، ص119.

ودامت الإمبراطورية حتى سقوط روما سنة 476م. وخلال ذلك الوقت أمسك الأباطرة بالسلطة العليا، وأبقوا على المؤسسات الحكومية القديمة للعصر الجمهوري. ولكن الأباطرة كانوا يسمون القناصل، ويعينون أعضاء جددًا لمجلس الشيوخ. ولم يكن للمجالس الشعبية سوى سلطة ضئيلة. وكان الأباطرة يقودون الجيش، ويتحكمون في صياغة القانون، ويعتمدون على مستشاريهم أكثر مما يعتمدون على مجلس الشيوخ. وكان هناك جهاز واسع من الموظفين المدنيين يقوم بتصريف شؤون الإمبراطورية يومًا بيوم.

انتشر الحكم الروماني تدريجيًا في البلاد المحيطة بالبحر المتوسط. وأطلق الرومان على هذا البحر اسم بحرنا والبحر الداخلي،وامتدت الإمبراطورية الرومانية، في ذروة اتساعها، في القرن الثاني الميلادي، شمالاً حتى الجزر البريطانية وشرقًا حتى الخليج العربي. وظل المؤرخون وعلماء السياسة ينظرون، لعدة قرون إلى الجمهورية الرومانية بوصفها نموذجًا للحكم المتوازن.

الدين: كان الرومان الأوائل يعتقدون بأن لآلهتهم سلطة على الزراعة وعلى نواحي الحياة اليومية كلها. فقد كانوا يزعمون أن سيريز، مثلاً، إلهة للحصاد، وفستا حارسة نار الموقد، ويانوس حارس الأبواب. وكانت الآلهة، المسماة لاريس و بيناتيس، تحرس الأسرة والبيت. حتى أن جوبيتر، الذي أصبح لاحقا أكبر آلهتهم، عُبد في بادئ الأمر إلهًا للسماء ومتحكمًا في الطقس.

تزايد احتكاك الرومان بالأفكار الإغريقية خلال القرن الرابع قبل الميلاد. ومن ثم أخذوا يعبدون الآلهة الإغريقية، وأعطوها أسماء رومانية و بنوا معابد ومزارات لتكريمها. وقد سيطرت الحكومة على الدين. وكان الكهنة موظفين حكوميين يقومون بالطقوس العامة التي كانوا يرون أنهم يكسبون بها عطف آلهتهم على الدولة.

فقد عدد كبير من الرومان في القرن الأول الميلادي اهتمامهم بديانتهم. وجذبتهم الأديان السماوية التي كانت تخاطب فطرتهم الإنسانية وتبين لهم طريق الخير في الدنيا والآخرة. وكسبت النصرانية، أتباعًا كثيرين في ذلك الوقت.

العمارة والهندسة: تبنّى الرومانُ القدماء الأشكالَ الأساسية للعمارة الإغريقية، التي اشتملت على المعبد المحاط بالأعمدة،والرواق المسقوف الذي كان يعرف باسم بورتيكو. ابتكر الرومان، إضافة إلى ذلك، أشكالاً جديدة من الأبنية، مثل الحمامات والقاعات العامة التي تتسع لعدد كبير من الناس. وعلى العموم فقد صمم الرومان مباني أكبر من مباني الإغريق وأكثر ضخامة منها.

وهناك إنجازان، من إنجازات الهندسة الرومانية، جعلا بناء العمائر الرومانية الضخمة أمرًا ممكنًا، أولهما: القوس وثانيهما: الملاط الخرساني (المِلاَط: إسمنت أو طين يُطلَى به الحائط). فالأقواس كانت تدعم أبنية مثل الجسور و الأقنية التي كانت تنقل المياه إلى المدن الرومانية . وكانت السقوف المحُمَّلة على الأقواس تسمح بترك مساحات داخلية واسعة ضمن الأبنية. وقد ألغت هذه السقوف المحمولة على الأقواس الحاجة إلى الأعمدة لحملها. ومع أن الرومان لم يكونوا مبتكري الأقواس،إلا أنهم كانوا من أوائل من نقلوها إلى حيز الواقع. ووَّفر الملاط الخرساني الذيابتكره الرومان، مادة بناء قوية بالنسبة إلى الجدران والسطوح المقبَّبة.

النحت والرسم: اقتبس النحاتون والرسامون الرومان أعمالهم من الفن الإغريقي ومن التقاليد الإيطالية المحلية، فأبدعوا صورًا واقعية تمثل أشخاصًا معينين. كما أنهم صوروا أحداثًا تاريخية بالنحت على المنشآت العامة الضخمة. فمذبح السلام، مثلاً، المزخرف غاية الزخرفة، يمجد السلام الذي جاء به الإمبراطور أوغسطس إلى الإمبراطورية. كما كانت هناك منحوتات على الأعمدة العالية، وعلى أقواس النصر تصور الحملات العسكرية.

وزينت رسوماتُ الجدران الضخمة بيوتَ الطبقة الميسورة من الرومان. وتُظهر مثل هذه الرسومات مناظر الحدائق وأحداثًا من الأساطير الرومانية ومشاهد من الحياة اليومية. وجعلت الرسومات الملونة بألوان عديدة والمبتكرة باهتمام ودقة،الغرف في البيوت تبدو أجمل وأكثر بهاءً.

الأدب: على الرغم من أن الرومان قد تمكنوا من غزو واحتواء بلاد اليونان عسكريا وسياسيا، إلا أن الثقافة اليونانية قد تغلغلت في الفكر الروماني بحيث صدر التراث الروماني في مجمله تقليدا لليوناني، وفي هذا المجال نجد شاعر الملاحم(فرجيل) يقلد (هوميروس) فيكتب ملحمة "الانيادة" حول (إنياس) أحد أبطال طروادة، وتمتلئ الملحمة بطبيعة الحال بالأساطير اليونانية، كما أن أحد أعمال الشاعر (أوفيد) وهو (التحولات) يمتلئ أيضا بأساطير اليونان، وكذلك نجد في كتابات المؤرخين الرومان قدرا كبيرا من الأساطير مما يعكس مدى التأثير الذي أحدثه اليونانيون في التراث والفكر الروماني.

كما تأثر الشعر المسرحي في روما تأثرًا كبيرًا بشعر الإغريق وآثارهم المسرحية، وكيَّف الشعراء والمسرحيون الرومان، من أمثال، نايفيوس وإنيوس، والكتاب المسرحيون، من أمثال، تيرينس، بلاوتوس، الأشكال الإغريقية من أجل الجمهور الروماني.

وكذلك بنى مؤرخو الرومان أمثال: قيصر وسالُّوست كتاباتهما التاريخية على النماذج الإغريقية. وأبدع شعراء روما الكبار، أمثال كاتولّوس، ولوكريتيوس، وأوفيد، وفيرجيل، وتاكيتوس ألمع مؤرِّخي روما،أبدعوا أعمالاً عظيمة وأصيلة. هذا بالإضافة إلى مؤلفات أخرى مهمة في الأدب اللاتيني تشتمل على خطب شيشرون ونقائض هوراس و جوفينال، ورسائل شيشرون و بلينيوس الأصغر.

وهذا الأمر يجعل مقولة " إن روما غزت آثينا عسكريا، غير أن آثينا غزت روما ثقافيا" يجعلها صادقة.

الأدب اللاتيني ازدهر في عهد أوغسطس بين عامي 27 ق.م و 14م. كتب الشاعر فيرجل ملحمته الشهرية الإنيادة عن نشأة مدينة روما .

مميزات الحضارة الرومانية:

أهم ما يميز هذه الحضارة هو الإنجازات المادية الملموسة ، ومن بينها المواصلات، الأمر الذي دفع الباحث بوازنكيه (R.H.Bosanquet) إلى القول في كتاب (تاريخ العالم): " تعتبر الطرق(المواصلات) أعظم ما خلّفته الإمبراطورية الرومانية، فلقد اندثرت المدن، وجفت قنوات المياه، بالرغم مما لحقها من تآكل وإهمال. ولما كانت مواقعها قد أحسن اختيارها فإن كثيرا منها ما زال يستخدم حتى اليوم"[1].

إذن حين أرادت الإمبراطورية الرومانية أن تبني دولة قوية وتترأس زعامتها ، قامت بفتح ؛ البلاد المجاورة لها ولكن واجهتها صعوبة المواصلات ، ووعورة الطريق فعمدت إلى ربط كل مدينة بطريق مرصوف يصل في نهايته إلى روما حتى تبقي هذه المدن المفتوحة تحت سيطرتها ، فأصبح كل طريق يصل في نهايته إلى روما ، فقيل "كل الطرق تؤدي إلى روما" tous les chemins mène à Rome وهو مثل يقال إذا تعددت السبل أو الحلول والتي تؤدي إلى نفس الجواب.

[1] – سامي اليافي: تاريخ الحضارات الإنسانية.